# الفصل الخامس

# فى التخلص من يد الملوك وذوى الأقدار بالبلاغة وحسن الاعتذار

## □ إن من البيان لسحراً !! :

قال أحمد بن أبى داود : ما رأيت رجلاً عُرِضَ على الموت ورأى النطع[1] مفروشاً والسيف مَسْلولاً ، ولم يكترث لذلك ولا عَدَلَ به عما أراد إلاَّ تميم بن جميل ، وقد كان خرج على المعتصم فى أيام دولته ، ونزع يده من الطاعة ، وانقطع إلى بعض النواحى ، وكان قد عَظُمَ أمره على المعتصم ، ولقد رأيته وقد جيء به مكتوفاً أسيراً ، وكان قد اجتمع الناس من الآفاق والنواحى ينظرون كيف يقتله المعتصم !، وكان المعتصم قد جلس له مَجْلِسًا منكراً ما حدث منه ، وأمر الناس بالدّخول ، ودخل تميم وحضر السيّاف ، وفرش النطع ، وكان تميم جميلَ الوجه تامَّ الخلقة ، عَذْبَ المنطق ، فرآه المعتصم غيرَ دَهِشٍ ، ولا مُكْتَرِث لما سينزل به ، فأراد أن يَسْتَنْطِقَه ليعلم أين عقلُه فى ذلك الوقت ! .

فقال لتميم : إن كان لك عذر فائْت به ، فقال :

أما إذْ أذن أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى حمى بك صَدْعَ الدين ، وألَمّ بك مستوحش المسلمين ، وأنار بك سبيلَ الحق ، وأخْمدَ بك شِهابَ الباطل ، إن الذُّنُوبَ ياأميرَ المؤمنين لَتُخْرِسُ الألسنةَ الفصيحةَ ، ولَتُصَدّع الأفئدةَ الصحيحة ! .

ووالله لقد كَبُرَ الذنب ، وعَظُمتَ الجريرة[2]، وانقطعت الحُجّة ، وساءَ

---

(١) النّطع (بفتح النون المشدّدة وكسرها وسكون الطاء وفتحها وكسرها) بساط من الجلد كثيرا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل يقال : عَلَّى بالسيف والنّطع.

(٢) الجريرة : الجناية والذنب ، وجاء فى المثل : « فى الجريرة تشترك العشيرة » يضرب فى الحث على المواساة والتعاون .

الظَّن ، ولم يبق إلَّا عَفْوك أو انتقامك ، وأنت إلى العفو أقرب ، وهو بك أشبه وأليق ، ثم أنشد هذه الأبيات :

**أرى الموتَ بين السيف والنِّطْعِ كامنًا ... يلاحظنى من حيث لا أتَلَفَّت**
**وأكْثَرُ ظَنِّى أنّك اليومَ قاتلى ... وأىُّ امرىءٍ مما قضى الله يَفْلِتُ**
**ومنذا الذى يأتى بعذرٍ وحُجّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عَيْنَيْه يُصْلَتُ**
**وما جَزَعِى من أن أموتَ وإننى ... لأعلم أن الموت حَتْمٌ مؤقتُ**
**ولكنّ خَلْفِى صِبْيَةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ**
**كأنى أراهم حين أُنْعَى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدودَ وصَوّتُوا**
**فإنِ عِشْتُ عاشُوا سَالِمينَ بغِبطةٍ ... أَذُود الرّدَى عنهم وإن مت موتوا**

قال : فبكى المعتصم حتى ابتلت لحيتُه ، وقال : « **إن من البيان لسحرا** »[1]

ثم قال : والله ياتميم كاد السيفُ يسبقُ العفوَ ، وقد وهبتك لله تعالى ولصِبْيتك ، وعفوتُ عن زَلّتكِ ، ثم أمر بفتاه فعقد له الولاية على موضعه الذى كان خرج فيه ، ووصله بشىء كثير .

## [ كنا أسراك وصرنا ضيوفَك ]

وقدم إلى معن بن زائدة أسرى ، فعرضهم على السيف ، فقام إليه رجل منهم وقال : « أيها الأمير نحن أسراك ونحن والله جياع من أثر الطريق ، فإن رأيت أن تُطْعِمنَا ففى كل ذات كبد حَرَّا أجر»[2]، فأمر معن بإطعامهم ، فأحضرت الموائد وعليها الطعام ، فاجتمعوا ، وأكلوا ، ومعن ينظر إليهم ، فلما فرغوا قام رجل منهم وقال : يأيها الأمير كنا أسراك ، وقد صرنا ضيوفَك ؛ فانظر ما يصنع مثلك بأضيافه ؛ فخلى سبيلهم .

---

(١) استشهاد بالحديث الشريف المرفوع فى صحيح مسلم (٢/٥٩٤) .
(٢) ذكره العجلونى تحت رقم ١٨٤٥ ولفظه :
« فى كل ذات كبدٍ حراءَ أجر »
وقال : رواه البخارى عن أبى هريرة مرفوعا ، وفى رواية « فى كل ذات كبد رطبة اجر »
وفى الباب عن سراقة عند البيهقى بلفظ « فى الكبد الحارّة أجر » .

# [ أى رب ! سل هذا لم قتلنى ؟!! ]

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل من أصحاب المختار[1]، فقال : أصلح الله الأمير ما أقبحَ بك إذْ أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يضىء فأتعلق بك وأقول : أى رب ؛ سل هذا لم قتلنى ؟! فقال مصعب : أطلقوه واجعلوا له ما وهبت من عمره فى سعة .

قالوا : بماذا ؟ قال : أعطوه مائة ألف درهم ، قال : أُشْهِدُك أيها الأمير أنى جَعلت نصفَها لابن قَيْس الرُّقَيَّات ، قال : لم ؟ قال : لأنه قال فيك هذه الأبيات :

**إنما مُصْعَبٌ شهابٌ مِنَ اللـ ـه تَجَلَّت عَنْ وَجْهِهِ الظلماءُ**
**ملكه مُلكُ رحمة ليس فيه جبروتٌ يُخْشَى وَلَا كِبرياءُ**
**يتقى اللهَ فى الأمور وقد أفْلَح مَن كان هَمُّه الاتقاءُ**

## □ أُفٌّ لهؤلاء الجِيَف !! :

أمر الحجاج بقتل أسرى ، فقتل منهم جماعة ، فقال رجل منهم وقد عُرِضَ على القتل لا جزاك الله عن السُّنَّة خيراً ياحجاج ، إن كنا أسأنا فى الذنب فوالله ما أحسنت فى العفو ! ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ [محمد : ٤] ، فهذا قول الله تعالى فى الكفار فكيف فى المسلمين ؟! وقد صدق قائل هذا البيت :

**وما نَقْتُل الأَسْرَى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ القلائد**

فقال الحجاج أف لهؤلاء الجِيَف ، والله لو أنهم قالوا مثل ما قال هذا الرجل ما قتلت أحدًا منهم ، ولكن أطلقوا بقيتهم ! .

## □ لماذا عفا عنه ؟! :

وقال رجل لبعض الملوك وقد أحضره ليعاقبه على جناية جناها : أنا ممن

---

(١) المختار الثقفى ابن أبى عبيد من زعماء الثائرين على بنى أمية وقتل فى محاولة يائسة للدفاع عن الكوفة وقد حاصره فيها مُصْعَب بن الزبير .

لا يَحُجَّك[1] عن نفسه ؛ ولا يغالطك فى جُرمه ، ولا يلتمسُ رضاك إلَّا من جِهَةِ عفوك ، ولا يستعطفك الاعتراف بالزّلة ! .

فاستحسَن ذلك منه وعفا عنه ، وأمر له بجائزة .

## □ خفت أن يسألنى الله تعالى لم فعلت ؟ ويسألك لم رضيت ؟! :

وأقبل المنصور يومًا راكبًا والفرج بن فضالة جالس ومعه جماعة ، فقام الناس كلهم وهو لم يقم ، فرآه المنصور فاشتد غضبه ودعا به ، فقال : ما منعك من القيام مع الناس ! قال : خفت أن يسألنى اللهُ تعالى لم فعلت ؟! ويسألك لم رضيت ؟ وقد كرهه[2] النبى – ﷺ –، فسكن غضب المنصور وانشرح ! .

## □ لماذا خلّى سبيله ؟! :

وخَرَج رجل على سليمان بن عبد الملك ، فَسلِمَ منه ثم ظَفَر به سليمان فى وقت آخر فعفى عنه ، ثم خرج على سليمان أيضًا فنَجا منه ، ثم ظفر به أيضًا فعفى عنه ، ثلاث مرات ، ثم أمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : اللهَ اللهَ ياأميرَ المؤمنين ، فقال سليمان : أليس قد عفوت عنك ، ثم عفوت ، ثم عفوت ؟!!، فقال الرجل : أليس الله قد أظفرك بى ، ثم أظفرك ، ثم أظفرك؟!!، قال : نعم والحمد لله ، ثم خلى سبيله .

# [ عمر والفارسى ]

وَجِئَ بالهُرْمُزَان[3] الفارسى بين يدى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – مأسورًا ، فدعاه عمر إلى الإسلام فأبى ، فأمر بقتله ، فقال : ياأمير المؤمنين قبل أن تقتلنى اسقنى شربة من الماء ولا تقتلنى ظمآناً ، فأمر عمر بقدح

---

(١) حَجّه يَحُجُّه : غلبه بالحجة ويقال أيضا : حاجّه فحجّه .

(٢) فى الحديث الصحيح الذى ذكره الخرائطى فى مساوىء الأخلاق ومذمومها :
« من سره أن يمثُلَ له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » .
إسناده صحيح وأخرجه أبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٥٦) وحسنه ، وأحمد (٩١/٤ ، ٩٣ ، ١٠٠) والبخارى (٩٧٧) فى الأدب المفرد .

(٣) من أمراء الجيش الفارسى فى معركة القادسية .

مملوء ماء ، فلما صار القدح ، بين يديه قال : أنا آمنٌ حتى أشربه ياأمير المؤمنين ، قال : نعم لك الأمان حتى تشرب هذا الماء فألقى الماء من يديه فأراقه !، ثم قال : الوفاءَ الوفاءَ ياأمير المؤمنين ، فقال عمر : دعوه حتى ننظر فى أمره ، فلما رُفع عنه السيف ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله !.

فقال له عمر : لقد أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخرَك ؟! قال : خِفْتُ أن يقال عنى : إننى أسلمت خوفاً من السيف ، فقال عمر - رضى الله عنه - : إن لفارس لَحُلومًا استحقت ما كانت فيه من الملك ، ثم إن عمر بعد ذلك كان يشاوره فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه[1].

# [ عفو المأمون ]

## □ اجعل عفوك عن هذا الحد ذنباً من الذنوب التى يُستَغفَرُ الله منها ! :

وسرق شاب سرقة فأتى به إلى المأمون ، فأمر بقطع يده ، فقُدِّم لتُقْطَعَ يدُه ، فقال :

**يدى ياأمير المؤمنين أعيذُها بعفوك أن تلقى مكانك شينها**
**فلا خيرَ فى الدنيا ولا حاجة بها إذا ما شِمالٌ فارقتها يمينُها**

وكانت أم الشاب واقفة عند رأسه ، فبكت وقالت : ياأمير المؤمنين ! ولدى وواحدى ناشدتُك الله إلا رحمت قلبى ، وهدّأتَ لوعتى ، وجُدتَ بالعفو عمن يستحق العقوبة ؟ فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعالى ! .

قالت : ياأمير المؤمنين اجعل عفوَكَ عن هذا الحد ذنبًا من الذنوب التى يستغفر الله تعالى منها !! ..

فرَقّ المأمون لها وعفا عنها ، وعن ولدها ! .

## □ عبد الملك بن مروان يعفو عن رجل من أصحاب الزبير ! :

وأتى عبد الملك بن مروان برجل من بنى مخزوم وكان من أصحاب الزبير ،

---

(١) انظر تاريخ الطبرى (٤/٨٨ - ٨٩) حوالى ١٧ هـ .

فلما حضر بين يديه قال له عبد الملك : أليس الله قد رَدّك إلى بئس المَردّ ؟! ورجع بك إلى بئس المرجع ؟! .

قال : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى ردنى إليك ورجع بى إلى مجلسك فإن كان الله تعالى قد ردنى إلى بئس المَرَدّ ، وأرجعنى إلى سُوءِ المرجع فأنت أَخْبَرُ بنفسك ؟، فقال عبد الملك : أطلقوه ، ثم أمر له بجائزة .

# [ عفو الرشيد ]

## □ ماتريد أن أصنع بك ؟! :

وخرج على الرشيد رجل خارجىّ فأنْهَضَ إليه الرشيد جيشًا فظفر به ، فأحضره بين يديه فقال له الرشيد : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذى تريد أن يصنَع الله بك إذا أوقفك بين يديه ! .

فأطرق الرشيد ساعة ، وقال : خلّوا سبيلَه ! .

فلما خرج من بين يديه قال له من حضره : ياأمير المؤمنين أنفقتَ أموالَك ، وأتعبتَ رجالَك ، وأطلقت عدوك بكلمة واحدة ، لا يأمن أمير المؤمنين أن يتجرأ عليه أهل الشر ! .

قال : ردوه ، فلما مثل بين يديه علم أنهم تحدثوا فيه عنده ! .

فقال : ياأمير المؤمنين لا تُطِعْ فى أسيرِك أحداً فإن الله تعالى لو أطاع فيك غيرَك ما استخلفك ساعةً واحدة ، فقال : خلوا سبيله لا يعاودنى أحدٌ فيه ! .

# [ عفو المنصور ]

وحدث أحمد بن موسى ، قال : ما رأيت رجلا أثبت جَناناً[1] من رجل قد وُقِعَ[2] فيه عند المنصور وقالوا : إن عنده ودائع وأموالاً وسلاحًا لبنى أمية ، فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره ، فأُحْضِرَ بين يديه ، فقال له المنصور : قد رُفِعَ إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحًا لبنى أمية ، فأخرج لنا منها ، واحمل جميع ذلك إلى بيت المال .

---

(١) الجنَان : القلب ، وفى المثل : « إذا فرح الجنان بكت العينان » .

(٢) عابه وسبه من اطلع على عوراته ، أو وشى به لدى المنصور .

فقال الرجل : ياأمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية ؟ قال : لا ، قال : فوصى أنت ؟ قال : لا ، قال : فلم تسأل عن ذلك ؟! فأطرق المنصور ساعة ؛ وقال : إن بنى أمية ظلموا الناس ، وغصبوا أموال المسلمين وأنا آخذها وأردها إلى بيت مال المسلمين ، قال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بَيِّنَةٍ يقبلها الحاكم على أن المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى ، وأنه هو الذى اغتصبوه من الناس ، وأمير المؤمنين يعلم أن من بنى أمية طائفة معهم أموال لأنفسهم غير أموال الناس التى اغتصبوها على ما يزعم أمير المؤمنين ، قال : فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : ياربيع صدق الرجل ما يجب لنا عليه شىء ، ثم قال للرجل : لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ماهى ؟ قال : آن يجمع بينى وبين من سعى بى إليك ، فوالله ياأمير المؤمنين مالبنى أمية عندى ودائع ولا مال ولا سلاح ، وإنما لما حضرتُ بين يدى أمير المؤمنين ، وعلمت ماهو عليه من العدل والإنصاف ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، وأنه لا يجوزه ذلك أيقنت أن هذا الكلام الذى صدر منى هو أنجح وأصلح لما سألتنى عنه ، وأقرب إلى الخلاص ، فقال المنصور للربيع : اجمع بينه وبين الرجل الذى اتهمه فأحضر الرجل ، فلما رآه قال : هذا أخذ لى خمسمائة دينار ، وهرب ولى عليه مسطورٌ[1] بها ، فأحضرهما بين يدى أمير المؤمنين ، فاستنطق الرجل فأقر بالمال فى ذمته فقال الرجل : ياأمير المؤمنين قد وهبتها له لأجلك ، وأدفع له خمسمائة دينار أخرى لأجل حضورى فى مجلس أمير المؤمنين ، فاستحسن المنصور فعله ، وكان كثيرا ما يدعوه إلى مجلسه .

(١) أى كتب صكا ووثيقة بذلك .